

لماذا لم يرد لفظ الحرية في القرآن ؟

كدت أجعل عنوان هذه الكلمة « لا حرية في الإسلام » . ولكنني أشفقت أن يسوء وقع هذا العنوان في النفوس ، وأن تغيب فكرته وحكمته في شدة الغضب منه . أو بسبب الازورار عنه .

فما لاجدال فيه ، أن الإسلام دين الحرية . جاء ليعلنها . وليوسع مداها ، وليجعلها غاية ووسيلة ، ونهاية وبداية ، وجوهرًا ومظهرًا ، وسلاحًا يدفع به . وحمى يدفع عنه . فلا إكراه في الدين ، ولا دين مع الإكراه . ولا ثواب ولا عقاب للمضطر المحمول على العمل بغير إرادة أو نية .

ولكن مع هذا قد خلا القرآن من لفظ الحرية ، وما اشتق منها . فلم يرد في الكتاب سوى لفظ « التحرير » : بيانًا لكفارة بعض الذنوب ، وقصد به إعتاق عبد أي فك رقبة . جاء هذا الحكم في سورة النساء والمائدة والمجادلة ، ومثله الآية الثانية والتسعون في سورة النساء : (ومن قتل مؤمنًا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) ، كما ذكر لفظ « الحر » مرة واحدة وهو يعنى به غير الرقيق .

أما الحرية بمعناها الذي نفهمه اليوم ، وتداوله ونلوكه ، فلا ذكر له في القرآن الكريم ولا أثر ، فما سر هذا ؟

إن القرآن ذكر أطوار الإنسان ، فن تراب أو طين أو ماء مسنون إلى نطفة فعلقه فضضة مخلقة أو غير مخلقة ، فطفل ، إلى رجل يبلغ أشده ، فشيخ هرم قد يبلغ أرذل العمر ، ثم ذكر خصائصه في النعمة والشدة ، ومواقفه عند الدعوة إلى الدين من إيمان وكفر ، ومن صدق ونفاق ، ومن ثبات وتردد ، لا إلى هؤلاء ولا أولئك ، وأطال الكتاب الكريم الحديث عن

خروج الإنسان من الضلال إلى الهدى . ومن الظلام إلى النور . ومن الجهل إلى العلم . ومن الكفر إلى الإيمان . ولكنه لم يتحدث قط عن الخروج من العبودية إلى الحرية . فما السر في ذلك أيضاً ؟
 السر واضح لمن يعرف منهج القرآن وأسلوب الإسلام . فالعقيدة في القرآن هي الأساس الذي تقوم عليه حياة المسلمين ودنياهم وأخراهم . وتتلون به وتتأثر شؤون معاشهم ومعادهم . وكل ماعدا العقيدة . إما باطل لا تحفل به . ولا تقف عنده . وإما فرع منها . أو أثر لها .

فالهداية هي غاية هذا الدين « الإسلام » . وهدف ذلك الكتاب « القرآن » . وإذا اهتدى الناس . وخرجوا من الظلام إلى النور . ومن الكفر إلى الإيمان . أصبحوا أحراراً . فالحرية لا تتحقق في الإسلام وحدها ، فالإنسان لا يكون حراً . إلا إذا كان مؤمناً . بما دعا إليه الإسلام . وإذا آمن . كملت قوته . فلم يعد يحسب حساب أية قوة خارجة على هذا الإيمان . أو جاهلة له أو معتدية عليه ، وهو إذ لا يخاف القوة . أياً كانت ، يعلو عليها ويحس أنها أصغر من أن تخيفه . أو تفرض عليه شيئاً « فيتححر » فحرية نابعة من عقيدته ، و« الله أكبر » هو جوهر هذه العقيدة ، فما دام الله أكبر من كل شيء . ومن كل شخص ، فالانقياد إليه ، واتباع ما يأمر به . يكفي المؤمن التفكير فيما يأمر به أصحاب السلطان ، فإن التزموا ما تقضى به العقيدة الإسلامية من احترام الإنسان وتكريمه فلن يثور بينه وبينهم نزاع ، وإن خرجوا على هذه العقيدة « فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »

من هنا لم يتحدث الإسلام قط عن الحرية ، لأنه يتحدث طويلاً عن الإيمان . والفرد إذا آمن بالإسلام ، لا يقول إنه تحرر ، وإن كان التحرر عنصرًا من عناصر إيمانه ، وثمره من ثماره . وكأن القرآن يقول — إذ أمسك عن ذكر الحرية . وعن ذكر التحرر — إننا إذا سلخنا الحرية عن

العقيدة . رأينا أن ما حسبناه حرية - إذا لم تصل عقائد الحاكمين والمحكومين - عبودية . فليس في الأنظمة كافة - حتى ولو كانت الإسلام نفسه - ما يقي الناس من التردى في مهاوى العبودية . فما لم يكن الإسلام حقيقة يعيشها الناس . وإيماناً يخالط قلوبهم ، لم يكف اسمه ولا رسمه . ولا التمسح فيه . ليحمى حرية الإنسان فبعد عهد الخلفاء الراشدين ، استحوالت الخلافة . إلى ملك عضوض ، فانطفأ أكثر النور الذى كان يبعثه الإسلام فى القلوب . فولى أمر المسلمين طغاة لا يعرفهم الإسلام ولا يحسبون من عداد حكامه .

أدرك الإسلام هذا كله منذ أربعة عشر قرناً . قبل أن تنشأ أنظمة الحكم الحديثة ومذاهب الفكر السائدة : فلم يحدث الناس عن حريتهم ، إنما حدثهم عن أنفسهم ودعاهم إلى الإيمان لأنه الطريق المفضى إلى حرية حقيقية : تواجه كل ظلم وكل تزييف .

ويخطئ الذين يحسبون أن الإيمان عند الإسلام استغراق فى الأوهام عن الدنيا ، أو فرار من الحياة ونكول عن أداء واجباتها الصغرى والكبرى معاً . فالإسلام أقام بناءه : بعد جهاد كابد فيه المقاتلون الأوائل . ومن جاء بعدهم ، مشكلات الحياة اليومية ومازق السياسة الدولية ، ثم قال الإسلام للمسلمين إن المرء يثاب حتى على اللقمة يرفعها المرء إلى فم زوجته . وقال لهم إن مداداً تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء . وقال لهم إن فى ذنوب العبد ذنوباً لا يكفرها الصيام ولا القيام ، فلما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم : « وما يكفرها ؟ » قال لهم ما معناه : يكفرها السعى فى المعاش . من أجل ذلك سكنت القرآن عن ذكر الحرية .